تحرير جيل من الوهم ...

بقلم محيي الدين محمد

٢ ـ المعتقدات :

انت تخرج الى الوجود فتجد عالما جاهزا (١) : بيتا واسرة ومدرسة وصبية وكرة وأبا وأما ، وشجرة تتعلق بها وتسرق بيض العصافير من اعشاشها ..

انك تريد ، من داخلك ، الا يقاوم ميولك وغرائزك احد ، تريد انت ان تكشف غموض هذاالعالم الذي تحياه بدون ان يقول لك احد : هذا حرام ، هذا خطأ ، هذا عيب ..

واذن .فبالرغم من انه تليت عليك بالامس محاضرة عن ضرر سرقة بيض العصافير ، فانت توالي السرقة وتشغف بها . وبالرغم من ان والدك قد اعطاك درسا (عصويا) قاسيا بضرورة الالتفات الى دروسك والقاء روايات الجيب في سلة المهملات ، فانت تستغفله ، وتختار كتابا للجبر ضخما ، تضع بداخله « غادة الكاميليا » او « سر جزيرة الكنز » ، وتأخذ في القراءة من داخل كتاب الجبر المفتوح للتضليل ..

لا شيء ابدا يمنعك عن فحص العالم . لا العصي ولا حرمان العشاء ولا النصائح . لماذا ؟

هل لانك لاتثق في التجربة السابقة عليك ؟ هل لانك تريد ان تكشف كل شيء بنفسك ؟

هل يعني ذلك ان الاخلاق عسيرة على الاعارة ، وانها تنشأ بدافع من الالتزام الخاص ؟

ان الطفل خامة اخلاقية ، كالحيوان الصغير : انه يلفظ العادة ويمجها ، وكما ان الحيوان يحاول احيانا كثيرة ان يعصى امه الجزعة للغاية ، فيخرج من مكمنه ويبصبص للعالم بنظرة الاعشى الكليل ،محاولا ان يفهم سر الضجة الهائلة التي تأتيه من الخارج ، يحاول الطفل الصغير ايضا ان يتعلم وحده سر الخشخشة التي يسمعها بداخل هذه اللعبة ، فهو يفتتها ، وينقب بداخلها . وتصرخ امه وتضربه ، ثم تحضر له لعبة اخرى ، ولكن سر الدورة الخالدة للعروس الجديدة فوق مقعدها لابد ان ينكشف ، واذن فمصير هذه اللعبة هو بذاته مصير اللعبة السابقة .

لاحظ طفلا صغيرا : كلمه ، واعبث باصابعك في وجهه ، تجده ينظر اليك . في اعماقك محاولا ان يفهم وان يدرك سرك . ان العالم ينكشف له في كل دقيقة بهذه النظرة المخلصة المتسائلة ، انه يفهمك ..

اذا تكرر العقاب ضد هذا الانفتاح ، وقضية فهم العالم التي تدور في ذهن الطفل ، فهو يختار احد حلول ثلاثة ، بالنسبة لظروفه الخاصة اي بالنسبة لخوفه من العقاب ، او مدى جرأته او قوة صراخه وعناده : اما تكرار الجريمة ، واما الرضى بالانتصاح وايثار السكونية ، واما استغفال الاباء بذكاء بدائي ..

تكرار الجريمة يؤدي الى تكرار العقاب ، ولكن ذلك لايمنع ابدا هذا الانموذج من تحطيم كل المثل والنصائح والارشادات ليكشف جوهرها هو بذاته ، ليقتنع بها على اثر تجربة شخصية للغاية . وزيادة العقاب لابد ان تؤدي الى فرض الكراهية الشديدة لاخلاقية الاخرين ، وتتحول بذور التطلع البريئة ، لتنمو الى شجرة خبيثة اساسها تحطيم كل المعتقدات والمثل ، وطرح الاخرين جانبا ، الرضى بالانتصاح ، وهو السلوك الذي تختاره الاغلبية هو المسئول الاول عن ملايين النسخ المتكررة المتشابهة كقضبان سور حديدي .

انت تولد ، فتجد عالما مهيأ لك : يطلق عليك اسم عبد الحميد هلال ، او عزيز جرجس ، ويكتب في شهادة ميلادك في خانة الديانة : مسلم او ارثوذكسي ، هكذا ، بدون ان تستشار او يؤخذ رأيك ، ولم يكن ينقص هذه الشهادة الا ان تحدد يوم وفاتك ايضا لتنتهي كانسان متخم بكل الامكانيات والاختيارات ..

الحياة تسير بك ، فتصطدم اولا مع عقلية الاطفال الاخرين الذين يلعبون معك ، وتكتشف اشياء جديدة تحتاج منك مراجعة نفسك او قبولها كما هي ، وتظل تحيا وتكبر ،وتكبر وتحيا الى ان تبلغ سن الشباب.

ها انت ذا تصبح رجلا . تحت انفك شارة تؤكد ذلك ، وصوتك ايضا مقاربا لصوت ابيك ، لقد كنت قبل ذلك طفلا تائها في محاولة كشف العالم : تريد ان تتعلم فتصطدم بالعقلية الجامدة لابائك الذين فعلوا في طفولتهم نفس مانفعله انت ، وسوف تفعل انت ايضا باطفالك مافعله اباؤك بك .. لماذا .؟!

لانك تستخسر ان يضيع ابنك وقته في التجربة..وهذا هو الخطاالاول.

انت تريده ان يسلم بنتائج تجاربك ، وهو يلفظها بدون نقاش ، وليس ذلك لان في وعيه فكرة الفرق الزمني الهائل بين شبابه وشباب أبيه ، مع اهمية ذلك ، لكن لانه خامة جديدة لايمكنها .. لايمكنها ابدا ان تتشكل الا بالطرق والتليين والتحريق . لا بد من تجربتها الخاصة . لابد ان تخوض عالما ..

واذن ، فانت كأب ، مخطيء تماما في اعتقادك ان النصيحة يمكنها ان تغير طفلا ..

ها انت اذن تصبح شابا مكتمل الرجولة فسيولوجيا . اول مايقابلك في هذه الفترة القلقة ، هي القوانين والاخلاقيات الموضوعة قصدا لعدك وقهرك ، ولا تنس انك قد اجتزت فترة براءتك وتطلعك منذ لحظة قريبة جدا . واذن فالعناد موجود مازال ، كامكانية لرفض كل تسخير ، والقوانين شديدة الوطأة : مادمت مسلما ، فيجب عليك ان

(١) سوف تلاحظون الحاحا واعادة في هذا المقال والمقالات القادمة ، وسوف تكتشفون ايضا انني ارمي وافسد الى هذا الالحاح والاعادة بالذات . اذ كيف نعرف الحقيقة اذا لم نعترضها دوما ونفتش في كل جوانبها ..؟

تصلي وتصوم وتمتنع عن مخالطة ابناء السوء وفاسقي الخلق (١) والا تستجيب لغرائزك ، وان تكون انموذجا اسلاميا للنهاية ..

المهم هو قانون العقيدة ، لانك يجب ان تلتزم بدور فردي معين ، فاذا كنت ممن يبحثون عن السعادة ، فسوف تضع في ذهنك عقيدة معينة ، او على الاقل ، سوف ترفض عقيدة معينة ، واذا كنت من الباحثين عن المال فسوف تفعل كذلك ، وحتى اذا كنت محايدا ، تريد ان تعيش كحمامة ، سوف تضطر الى الوقوف من العقائد موقفا معينا : اذ لا احد يمكنه ان يستغني عن العقيدة ، سواء بقبول واحدة ، او برفضها جميعا.

ها انت ذا اذن ، في ارض ممتلئة بالاشارات الملونة : اتبع هذا الطريق ، كلا .. اتبعنا نحن .. الفلسفة الكذا اعظم واصدق فلسفة في الوجود ، المادية تحل كل الاشكالات ، لاتمش وراء هؤلاء ..! العالم ممتلىء بهذه الاشارات التي تبغي كسبك لصفها ، ولكنك تلفظها جميعا ، وتغض عنها النظر ، لا لانك تستصغر هذه العقائد ، بل لانك منضو الى احداها منذ ميلادك ..

ولن تطيق ابدا فكرة مناقشة عقيدتك على ضوء العقائد الاخرى ،حتى اذا امكن لك ان تكشف تناقضا فيها او استحالة ..

الرجال الذين اخترعوا هذه النظريات والعقائد ، كانوا من صنف الاطفال غير الخاضعين . الاطفال الاشقياء الذين رفضوا ان يصدقوا ان القفز من الترام في اقصى سرعته فيه من الخطر اكثر مما فيه من المغامرة ، وان متعة الاستحمام في الفيضان تحمل معها رهبة الموت والغرق : الاطفال الذين كانوا رجالا في الحقيقة ..

وقد حاول هؤلاء الرجال ان يحولوا الاطفال ذوي الشوارب ، في ارذل اعمارهم ، من قبولهم وتسليمهم ورضاهم ، الى منتهى مايفرضه العقل عليهم من تأمل ورفض وممارسة للوعي . لقد ارادوا ان يعيدوا اليهم مافقدوه من حس الكشف الذاتي والادراك الخاص في طفولتهم .. ولكن الزمن يغلب كل شيء والاكذوبة عندما تتكرر دائما تصبح الحقيقة بعينها . واذن ، فقد كان الزمن والكذب والحس الراضي في الفرد ، اعداء اولئك الرجال حقا ، لم يكونوا يصارعون رجالا بمناقب ، بل يصارعون مناقب مجردة ، يحميها التاريخ والسلطة والروحانيةوالسذاجة.

وبالرغم من ذلك امكن لهم ان يغيروا اشياء في نفوس الاطفال الذين كانوا يظنون ان ادم هو ابونا الحقيقي ، وان بعث الاجساد من الموت ليس مستحيلا ، وان كل الافلاك والنجوم والسيارات والكواكب والشموس والاقمار والسدم ، موجودة لخدمة نوازعنا التافهة ..

كان هناك تاريخ كامل ، بدأ بالرغبة المجنونة في تفسير كل شيء ، وانتهى الى الرضى باعتماد الخرافة تفسيرا وحيدا : المجتمع المصري القديم لايصدق ان الانسان مختلف عن ملايين الحيوانات والحشرات التي تعيش وتتنفس ، ولها حظ من الذكاء يماثل او يقل عن ذكاء البشر، واذن ، فلا بد ان البشر يحملون في اعماقهم سرا مجهولا . سرا عظيما يؤهلهم لامتياز اخر مدفون في مستقبل الزمان . لابد ان حياة اخرى تنتظر الانسان : فيها العدالة ، لان العالم يخلو من العدالة ، فيها النظام لان العالم فوضى ، وفيها الحب لان العالم كراهية ، وفيها السعادة لان العالم شقاء .. (١)

والذين قالوا بان الانسان مميز عن الحيوان بالذكاء مخطئون ، فالشمبانزي والنمل والكلاب اذكياء ايضا . والميزة الرئيسية للانسان هي الخيال ، وليست الضحك او الاجتماعية او القدرة على الكلام ، لان الاورانج اوتان يستطيع ان يقهقه كالمجانين ، والنحل يعرف عن الاجتماعية احسن منا ، والببغاء يستطيع ان يثرثر مثلنا ، وفي يوم ما ، وتبعا لنظام معين ، يمكنه ان يؤلف الاوذيسة مرة اخرى ..

وليس من حيوان يتمتعبالخيال ، لانه ميزة رئيسية للانسان ، خلقها له التأمل ، وزيادة وقت الفراغ ، والفضول ، وما ندعوه حس المقابلة بين الاشياء : فاذا كان النهر امام الانسان صغيرا ، فباستطاعته ان يرسم في ذهنه نهرا عريضا الى غير مانهاية ، وكذلك قل عن اي شيء .... والخيال في اساسه افتراض كمي ، وليس كيفيا ، اذ ان اغرب ما يمكن لنا ان نتصوره ، يبقى بصفة مستمرة ، ارضي الملامح ..

واذن ، فقد امكن للمصريين القدماء ان يتخيلوا ارضا جديدة ، تبدأ بالبعث ، وتنتهي بالخلود ، والانسان الفرد يحب الانظمة البسيطة سهلة الفهم ، ولا يحب التعقيد واعمال الفكر والجهد العقلي ، وما دام البشر جميعا يؤمنون بما يؤمنون به ، فانت كذلك تؤمن به ..

في الصين ، وفي الهند ، وفارس ، وفي بابل ، واليونان القديمة ، وعند شعب المايا ، وفي المكسيك ، وفي استراليا ، ونيوغينيا ، يعيش بشر يتمتعون بخصال المصري القديمة من خيال ، ورغبة في الايمان بشيء ليست له حدود ، فليس غريبا ابدا ان تتقارب الامثلة في الخروج من هذه الانشوطة ، وان تتماثل ، وان تتفق على تفسيرات متآلفة ..

كان أولئك الرجال الابطال يناضلون ضد هذا التاريخ الخيالي الضخم باسلحة ضئيلة اولها المنطق واخرها المنطق ، وكانوا ينجحون احيانا في اثارة الاسئلة ، ويفشلون احيانا في الرد على اسئلة مثارة ، لان المنطق كان يسير على قدميه ، ولم يكن هذا الجهاز السريع الذي اسمه العلم موجودا بعد .

في الشرق الاوسط ظهرت اديان كثيرة ، اختصرت نفسها الى اليهودية والمسيحية والاسلام . في الشرق الاقصى كذلك اديان انتهت الى البوذية والكونفوشيوسية والزرادشتية . وانتهى بشر الارض جميعا الى الرضى باحد هذه المعتقدات او بغيرها ، والتسليم بكل مافيها من حجج وتعاطف وخرافية ..

اقرب معتقد من هؤلاء الى زمنك يزيد كثيرا عن الف عام . انت تحيا في عالم تتغير ملامحه في كل يوم ، فمثلا : في ٥ يونيو ١٨٦١ العالم كله يضاء بالبترول . في ٦ يونيو ١٨٦١ تكتشف الكهرباء في ١٤ فبراير ١٩٥٤ كثير من اطفال العالم يعانون من شلل الاطفال . في ١٥ فبراير

ـ التتمة على الصفحة ٧٦ ـ

(١) المهم ان فاسقي الخلق هؤلاء ، ليس مكتوبا ذلك على جباههم . انهم لايعرفون الا بممارسة صداقتهم . وما دمت انت خامة لم تنزل فلن تعرف ابدا ، لان النفوس هي التي تسيرك ، اذا كان هؤلاء فاسقي خلق حقا ام لا .. ان كشف ذلك يجب ان يتم من الباطن . وانت معذور في ذلك ..

(١) ابسط قواعد التشريح تستطيع نقض فكرة ان الانسان مميز عن بقية الحيوانات الاخرى ، فما من ميزة فسيولوجية يتمتع بها الا ويتمتع بمثلها او احسن منها ، الحيوان . بل ان بعض علماء الابصار « كهوهنزلر » اصروا على انه يمكنهم وضع نظرية بصرية احسن من مثيلتها الطبيعية في الانسان ، وذلك يعني ان الانسان لايفضل الحيوان من حيث الجسد ، وان تعديلات تجري في اجهزته يمكن لها ان تغير طول عمره ، وصحته ، وكيانه جميعا ..

تحرير حيـــل من الوهم

ـ تتمة المنشور على الصفحة ١٦ ـ

١٩٥٤ يخترع مصل سولك للقضاء على شلل الاطفال (*) ..

وجه العالم يتغير في كل يوم . لقد قضى على السل تقريبا ، وقضى كذلك على الاوبئة كالطاعون والتيفويد والكوليرا والتيفوس ، الا فـي الهند وبعض البلدان المتأخرة من حيث العلم ، والمتقدمة من حيـث التفاسير الاعتقادية .!! انت تلاحظ ذلك . فالعالم يطير بسرعة خارقة مكتشفا القوانين الفلكية ، وقوانين التجاذب الكونية وانفراط العقـد السدمي ، وقانون الزرع الفسيولوجي الحديث جدا ، ومئات القوانين الاخرى التي ترمي الى كشف وجه العالم وتعريته وتطويره ..

الاديان عمرها الاف الاعوام .. وما من دين واحد يحاول ان يعي فكرة تطورك ، وان ينفذ اليك في عصريتك : انت الذي تختلف عن ابيـك قدر مايختلف نيوتن عن صائد للغزلان في صحراء جوبي ..

اختر لك واحدا من العبرانيين القدامى قبل ظهور المسيح ، ولاحظ سلوكه واخلاقياته ، وادرس مجتمعه وظروفه الخاصة ، تجد جوابـه للكون نظيفا ومنسجما تماما مع روح عصره : الجو مهيأ لظهور المسيح . نظام الجباية الروماني يعذب الشعب الفقير الذي يتطلع الى قيادة الهية. ظهور المسيح والمعجزات التي تصحبه . فكرة حب الاخر تقف في وجـه الامبراطورية الرومانية القاسية . الانسان طاهر ومبرر . المسيح يتعذب ويموت من اجل هذا العبراني القديم . يتحول العبراني القديم ويصبح من اشد المتحمسين للديانة الجديدة .. وكذلك قل عن البوذيـة والاسلام ..

هات هذا العبراني القديم واجعله يحيا في عصرنا الراهن بمناقبـه القديمة : انه يستغرب ، ويحاول ان يوفق بين مبادئه وبين العصر الـذي قفز اليه مرة واحدة ، ثم هو يستعيد شكوكا لم تكن لتخطر بذهنه. ثم يغلب عليه قديمه ، ثم هو يستعيد شكوكه مرة اخرى ومائة والفا ، ثم يموت شاكا ، لاادريا وجاهلا . وذلك لان نبوءات المسيح بقرب نهاية الكون لم تتحقق ، ونبوءاته بان العدالة لن تتحقق على هذه الارض تعارضهـا الامكانيات الموجودة في اقصى شمال اوروبا ، وبالاختصار ، ان هـذا العبراني القديم مندهش للغاية ..

اما انت ، فلست من عصر المسيح ، لست من عصر زرادشت ، وثـق اننا لو خطفنا موسى حيا يرزق ، واوصلناه بالطائرة الى السويد ، او احد الاقطار التي يرتفع فيها مستوى المعيشة ، لظن نفسه في فردوس الرب ..! انت تحيا في عصر مختلف كل الاختلاف ، مرتديا زي هـذا العبراني القديم : انهم في عصرك يسألونك ، ما هي الطريقة لمحـو الفقر من العالم ؟ انت تجيب : الحب . او الزكاة .. او التصوف .. او رفض العالم في سبيـل الجنة ..!

العصر يضحك لجوابك ، لان هذه اجوبة افترضت منذ الاف السنوات ولم تثبت نجاحا ، وها انت ذا ، مازلت متمسكا بها ، لان هذا الجـواب يعجبك من حيث لاتدري ، لانه تاريخ اسرتك وجنسك ووطنك ، لانـه العصبية التي بدونها لايمكنك ان ترفع رأسك ..

انت تحيا بالعقيدة لان جزءا مجهولا من جسدك اسمه الروح ، لايمكنه ان يستكين الا في ظل عقيدة . صحيح ان العالم مازال يسأل : ماهـو تفسير الحياة والتاريخ وتحول العضوي من اللا عضوي ؟ وصحيح انـك تظن ان كلمة الله « كن » هي التي حولت العدم الى حياة ، وان التاريخ الانساني هو حكاية الشقاء التي تنتهي بالفردوس او الجحيم ، وان شق البحر الاحمر حادث مؤكد وان عيسى احيا الموتى .. وهكذا .. وهكذا. انت تؤمن بكل ذلك ، لان هذا الجانب فيك لايقنع الا بايمانك ..

وانت تسأل اولئك الرجال « الكافرين » : وكيف خلق العالم اذن ، وكيف وجدت النجوم والافلاك والليل والنهار ..؟ بل كيف وجد الانسان فوق هذه الارض ؟ صحيح .. صحيح .. انها اسئلة على غاية مـن الدقة والمهارة والذكاء ... ولكنك تنسى شيئا هاما للغاية : فاذا كـان هؤلاء الرجال يخبرونك ان الخلق ليس حادثة فردة ، وانه مستمر فـي التاريخ والى الابد ، واذا كانوا يقولون لك ان منطق الوجود يرفض اعادة الحياة الى الموتى الذين تحطمت جماجمهم وعظامهم وأكل الدود لحمهم ، ثم مات وتحول ترابا هو الاخر .. اذا كانوا يرفضون قصة فتح البحـر الاحمر ، هكذا من غير ادلة على منطقهم ، فذلك لانهم يقفون الان مـن المسائل الضخمة في نفس الدرجة التي تقف انت عليها .. وانما يكمـن امتيازهم اولا ، في انهم لايساقون الى الاعتراف بشيء بدون ن يفحصوه جيدا ، ولانهم يعرفون ان ثمة عادات ورثناها لاتفعل شيئا الا لزيـادة انتكاسنا الى وراء . وثانيا لانهم يؤمنون بتطور الانسان والعالم ، وثالثـا لانهم يشكون في انك تكفر بعقلك ، لذلك يتشككون في كل شيء تقوله ، ولهم الحق في ذلك . قل لي لمـاذا ؟

انت تقول لهم ان الاعتقاد شيء قلبي ، وان الدين لايفسر بالمنطـق وان الله لايعرف بالعقل .. ولكنك تخطيء هنا تماما ، اذ ان كل تقـدم

(*) لم اقم بمجهود في البحث عن التواريخ الحقيقية لاكتشـاف الكهرباء ومصل سولك . انما هي تواريخ تقريبية لايراد امثلة ، وأي تاريخ اخر يفي بالغرض تماما ..

مؤسسة فرنكلين بمصر وبيروت

تقـدم احدث المطبوعات

٣٥٠	الله ـ يتجلى في عصر العـلم
٦٠٠	البيروقراطية والمجتمـع
٥٠٠	العقل الحـي
٣٥٠	العقـل الناضج
٣٠٠	قاهر القطب الجنوبي
١٣٥٠	موسوعة تاريخ العالم جزءان
٤٣٠	موجز تاريخ العـالم
٨٠٠	جيفرسـون
٨٠٠	رواد الاستراتيجية جزءان
٦٥٠	سـكان السموات
٥٥٠	رواد الصواريخ
١٠٠٠	النقد الادبي جزءان

تطلب جميع منشورات مؤسسة فرنكلين في مصر ولبنان من الوكلاء العموميين

دار الثقـافة ـ بيروت

ص.ب ٥٤٣ ـ تلفون ٣٠٥٦١

اساسه منطقي وعقلي ، وليس اساسه القلبية او العاطفية ، بل ان الشعر الذي هو منه عاطفي للغاية ، يصدر عن العلاقة ، والعلاقة في الاساس ، مجاورة فيزيائية ، وليست تجريدا . وكل التأملات التي حلم بهـــا راما كريشنا ، وكل ما دونه نقلا عن المسيح وعن محمد ، تعبير عن كثافة العلاقات الانسانية ، اكثر منها تعبيرا عن الروحانية والعاطفية ..

هؤلاء الرجال يسألونك : اتصدق ان نبي الله « الياشع » يطلب من الله الحكيم ان يحول اربعين طفلا الى حجارة ، لانهم هللوا وراءه « ياأصلع .. ياأصلع .. » ؟ وتصدق ايضا ان الله الحكيم حول اولئك الاطفال الابرياء الى حجارة ، بناء على طلب نبيه ؟!

انت تجيب ممتلئا بالوثوق ، وبالعرق ايضا : نعم . ان الله حكيم ، ويعرف مايعمل ، وكل مايبدو لنا ضد الحكمة ، انما ينبىء عن منتهـــى الحكمة التي نجهلها ..

وانا اسلم معك جدلا بذلك ، ولكنهم يسألونك : ولماذا اذن نتمســـك بحكمة غامضة علينا ؟ لماذا ندافع عن شيء نجهله مادمنا نملك رؤوســا واعينا وعقولا ؟ ولا اخالك تستطيع الاجابة الا بكلمات من مثل : « انهـا حكمته . ومن اين لنا ان نعرف الصواب » وأشياء اخرى عجيبة ..

تماما كالطفل تسأله بعد ان مزق كتابه : لماذا فعلت ذلك ؟ فيظـــل يجيب دوما : هكـذا ... (١)

لاشيء يمكنه ان يقف ضد المنطق ، ويدعي ان حدوده تتجاوز العقـل، وقد حاول الكاتب الانكليزي المعاصر كولن ويلسون في مؤلفيه « الغريب والدين المتمرد » ان يثبت ان الانسان الحق هو من يرى رؤى .! وكذلـك ظن الشاعر الانكليزي الكاثوليكي توماس ستيرنز اليوت ، ان العـــودة الى الحب المسيحي هي نهاية كل قلق وفشل عصري . وبالرغم مـــن اهمية هذين المفكرين للحضارة الراهنة ، بالرغم من ذكائهما وقـــوة معارفهما ، فان النماذج التي قدماها تأكيدا وتدليلا على زعمهما ، لـــم تكن سوى نماذج متصوفة ، لم تر العالم الا من واجهة قهرها الشخصي ، ومأساتها الذاتية . وعملية الاسقاط الجمعي هذه ، عملية طبيعية للغاية، فعندما ترسب في الاختبار النهائي بالكلية مثلا ، يتلون العالم كلـــه : الغروب الساحر . زرقة الجاردينيا ، روعة الصداقة .. تتحول جمعـــا الى لون فشلك ورسوبك ، وهكذا رأت هذه النماذج العالم : وليم بليك، رانيرا ماريا ريلكه ، رامبو ، برنانوس ، سكوت فيتز جيزالد ، هيرمان هيسه ، جاكوب بوهمه ، كيركيجورد ..

واذا تفحصت حياة كل منهم ، وجدتها صراعا من اجل الحصـــول على حقيقة محضه ذاتية ..

ولاحظت ايضا ان ثمة انفصالا كان يحدث بين طبيعتهم وتأملاتهم : كانوا ينظرون الى العالم فيلحظون بؤسه وقصوره ، ويتصورون ان تغيير ذلـك مستحيل ، اولا ، لان الموت العقبة الاولى ، وثانيا لان علاقة الانســان بالاخر هي علاقة كراهية ورغبة في القتل للحصول على كم اكبر مـــن مسوغات السعادة الرفاه ، وثالثا لان بهم جميعا رغبة محمومة بالانتقال الجسدي او الفكري الى لحظة انشداه وذهول تام ، للقاء الحقيقة ..!

قل لي اذن ، ماالفرق بين هذا الكلام العجيب ، وبين ان يقال لك : عذب جسدك بوخز الابر ، والسير على جمرات ملتهبة ، ورفع اليـــد اليمنى الى اعلى حتى الموت لتحصل على النرفانا ، او الاتصال بالروح الاعلـــى ..؟!

(١) الترجمة الفصحى لكلمة « كده » في العامية المصرية ..

لقد اصبحت رجلا ، وها انت ذا تواجه عالما فيه مافيه من عقائد ومثل ونظريات واخلاق . هناك انموذجان سوف نسميهما ـ للايضاح ليس الا ـ السلبي والايجابي ، اما الانموذج السلبي فهو الذي يرفضه العالم لان العقيدة التي تمسك بها تتناقض مع طبيعته التي اوجدها له العالـــم ، فهو اذن يرفض العالم ، ويرفض طبيعته ، اما الانموذج الايجابي ، فهـــو الاخر الذي يناقض عقيدته ، ويحيا تبعا لظروفه ، مرة بالعقيدة ، ومـــرات بطبيعته .. وهذا هو الانموذج المتكرر الذي نراه بالملايين : انه يفضـــح الكذب ويتمسك بالاخلاق امامك وامامي ، اما بينه وبين نفسه ، فان كذبة صغيرة لاتجر الى شيء طالما فيها مصلحته الخاصة ، ومصلحة اطفاله ، والله نفسه لن يعير بالتأكيد مسألة جوع اطفاله ..

الانموذج الايجابي هو الانسان الناجح الذي لايرفض مفنما باسم اي شيء ، بينه وبين نفسه ، ويرفض ذلك في الظاهر وبين اقرانه .. لان المثل والاعتقادات التي يحملها في قلبه متعارضة الى حد كبير مع حياته وسلوكه ومسألة سعادته الخاصة ..

المسيحي يقول لك : احبب الناس .. .ولكنه اذا ضارب في البورصة مثلا ، او في تجارة تتطلب الربح او المنافسة ، سوف يتعلم اكثر من ذلك وسوف يعرف ان العلاقة بينه وبين المضارب الاخر او التاجر هي علاقة كراهية وغل وحقد .. اكثر منها علاقة حب .. وهو يعلم بالتأكيد انـــه لو اتبع نصيحة المسيح ،سوف يفلس في اقل من شهرين .. وهو يبـــرر استحالة تحقيق فكرة الحب ، بان النظرية صحيحة ، ولكن النـــــاس لايستعملونها ، وذلك بالطبع منطق خاطىء ، وتعميم فاشل ، فافتراض الحب الانساني الميتافيزيقي ، في عالم متشابك العلائق المادية المحسوسة والملموسة ، لايؤدي الا الى تجاهل هذا الحب ، لخلق قيم مادية جديدة..

الانموذج السلبي يرفض العالم ، لانه يعرف تماما ان العالم ينمـــي فيه طبيعته ولا يشجبها ، وهو لذلك يقبل التصوف ، ويرفض كـــل اجهزة جسمه مما يعتبره دنسا وأرضيا وحيوانيا ، ويحيا بالروح ، اي انه يتبع نفس الوسيلة الهندية الغربية : تعذيب الجسد من اجل خلاص الـــروح ..!

كيف ننقذ حياتنا بين هذين السلوكين .؟

اليس هناك طريق ثالث نستطيع بواسطته ان نحقق انفسنا بـــدون تضحيات جديـدة .؟!

« يتبع »

القاهـرة **محيي الدين محمد**

نزهة الجلساء

في

اشعار النساء

لجلال الدين السيوطي

حققـه وعلق عليه

الدكتور صلاح الدين المنجد

نشرته : دار المكشوف ، بيروت